تبدأ المسرحية فإذا بنا نرى «بجماليون» يعيش حياة العزلة في محراب الفن بعيداً عن المرأة، بعيداً عن الحب، ولكنه مع دلك فإنه يحب تمثاله الجامد الذي أبدعه حباً حسوياً، ويعتقد أن هدا التمثال أكمل وأجمل مما أبدعته الحياة نفسها. ومن هنا فإنه يقيس قامته إلى قامة الآلهة، بل إنه ليذهب إلى أبعد من هذا فيحس بتفوقه على الآلهة التي لا تستطيع أن تسمو على نفسها، وأن تخلق شيئاً خالداً وجميلاً جمالاً محضاً لا يشوبه نقص، لأنها مقيدة بالنواميس. أما هو الإنسان الفاني فإنه يستطيع بقوة فنه أن يبدع الجمال الخالد الذي لا يخالطه قبح. ولنستمع إلى هذا الحوار الدي يدور بين «فينوس» إلهة الحب ونصيرة الحياة، وبين «أبولون» إله الفن ونصيره:

«فينوس : أكاد لا أصدق أن هذا العمل يخرج من بين أصابع فانية!..

أبولون : هؤلاء البشر يا فينوس يمتازون عنا ـ نحن الآلهة ـ هذا الامتياز: في طاقاتهم أحياناً أن يسموا على أنفسهم أما نحن فلا نستطيع أن نسمو على أنفسنا.. إن قوة الفن أو ملكة الخلق عند هؤلاء لقادرة أحياناً أن توجد مخلوقات جميلة ليس في إمكاننا نحن الآلهة أن نأتي بمثلها أو نجاريهم في شأوها.. لأنهم أحرار في السمو، ونحن سجناء النواميس.

فينوس : (كالمخاطبة لنفسها) قوة الفن!.. ما قوة الفن تلك التي يستطيع بها الهالك أن يحلق الخالد؟»[32].

ونتابع قراءة المسرحية فنجد أن «بجماليون» أخذ يعاني من التعاسة والشقاء برغم ما يتمتع به من موهبة الإبداع التي تحسده الآلهة الخرافية عليها.. وسر تعاسته وشقائه يكمن في كونه يحس بأن حياته باردة مملة من جهة، وبأنه في حاجة إلى أن يتلقى ويأخذ كما يمنح ويخلق من جهة أخرى، ولهذا فإننا نجده يرثي للآلهة الدين يظلون يمنحون كل شيء طوال الأبد، ولا يأخذون أي شيء:

«بجماليون :.. لقد تعبت.. أريد الآن أن أشعر أن هنالك من يخلق لي،